

حضور القدس في أغراض الشعر وفنونه

الحديث هنا هو كيف تناول العرب موضوع القدس في قصائدهم، وماذا شكلت بالنسبة لهم هذه المدينة في أغراض الشعر وكيف تطور تناولها في الشعر مع تطور الأحداث، يتنوع التناول الشعري لمدينة القدس بتنوع الدوافع، وتظهر هذه الدوافع في الأسلوب والنهج واللغة التي تعبر عن القدس وقضيتها.

لا يخفى على إدراك القارئ أن أغراض الشعر هي: الفخر والمدح والهجاء والثناء والاعتذار والحنين والوصف والحكمة والمثل.. وأن من عناصر الفنون الشعرية المعاني (في ابتكارها) والأخيلة (في سعتها) والألفاظ (في جزالتها) والأساليب (كحسن التخلص أو الوقوف على الأطلال) والأوزان والقوافي.

وفي محاولتنا البحثية الخيثة حول القدس وأغراضه في شعر العرب، نكشف عن جزء من المساهمة في سبر العلاقة التاريخية بين هذه البلاد وبين القدس والأقصى، حيث القدسية الروحية قبل المقاومة وبعدها وما تحمله من دلالات قومية وإيديولوجية.

فهذا الشاعر المصطفى بن معاوية التندغي (ت 1979 م) يكتب مطولة في هجاء إسرائيل ويصف حرب 1973 وما صنعتها الجيوش العربية معددا حكام العرب بأسمائهم، يقول⁸⁰:

دويلة إسرائيل قدما بلا عهد وقدما بلا جاء وقدما بلا جهد

إلى أن يقول⁸¹:

⁸⁰ ديوان المصطفى بن معاوية التندغي - تحقيق وجمع: د/ احمد محمود بن الدنبجة (عمل مخطوط).

وجاء إلى القدس الحسين وقومه لتدمير من قد كذبوا صادق الوعد

دويلتهم هام لها كل دولة وهم ذنب أو جيد كلب بلا عقد

وكل يهودي لدى النقد زائف فلا هو أصلا في نحاس ولا نقد

إذا ما رأيت الوفد منتسبا لهم ترى الذل مضروبا على أوجه الوفد

ويذهب الشاعر محمد عبد الله ولد عمارو إلى أبعد من ذلك، عندما يستخدم تقنية النص الموازي من أجل أن يزيد في هجائياته المعاصرة للزمن العربي الرديء، بحيث ظهرت عناوين النصوص منبئة عن مضمونها وغرضها، كل ذلك بلغة متقاة من قاموس الغضب والخراب، يقول في المقطع السادس من قصيدة الجزيرة:

حديقة يعرب نجم (مسدس)

وترفع مئذنة القدس

الله أكبر / الله أكبر

ثعالب حيفا هرير

عواء / سعالى تلايب رعب وذل.⁸²

⁸¹ المصدر السابق.

⁸² محمد عبد الله بن عمر - دمع الغروب - ص 10.

محمد ولد عبدي في (حنينه)-مثلا- يكتف رمزية الغربة والحنين في قصيدته (جفرى)، فهو المتغرب عن وطنه، لا يجد تعبيرا عن مرارة الغربة، أكثر من قصة (عامر)، وهو شاب فلسطيني في الخامسة والعشرين من عمره، تعرف عليه الشاعر وامتدت الصلات بينهما فترة من الزمن.

وكانا كلما التقيا، يغني (عامر) موال (جفرى)، ثم يتحدثان عن الشعر وعن (طرفة ابن العبد)، وكلنا نعرف إن طرفة توفي في عمر قريب من عمر الشاب الفلسطيني هذا، ويتمتم (عامر) بالعامية⁸³:

يا ظريف الطول وكف تاكولك / رايح للغربة وابلاذك احسنلك

وبعد فترة يستشهد (عامر) في جنين، فيتذكر الشاعر كلماته الأخيرة في مقهى جمعها ذات يوم⁸⁴:

هل تعرف معنى أن تعشق في الأرض المحتلة

قلت : ثقيل

فالحب بلا معنى إن غاب المحبوب

والمحبوب بلا ذكرى إن غصب القلب

وأنت/ تخوفت عليه ولم أقصد إلاي.

ويذكرنا المختار السالم أحمد سالم بقول نزار قباني⁸⁵:

⁸³ محمد عبد الله بن عمر - المصدر السابق - ص 10.

⁸⁴ محمد ولد عبدي - كتاب الرحيل وتليه الفصوص، ص 73.

دمشق يا كنز أحلامي ومروحتي أشكو العروبة أم أشكو لك العربا

وإذا ما عدنا إلى الورا نرى في رثائها ما قاله القاضي أبو المظفر الأبيوردي يرثي
القدس ويحث على الجهاد⁸⁶:

مزجنا دماء بالدموع السواجم فلم يبق منا عُرْضة للمراحم

وشر سلاح المرء دمع يفيضه إذا الحرب شُبَّتْ نارها بالصوارم

فإيا بني الإسلام إن وراءكم وقائع يلحقن الذرى بالمناسم

وإخوانكم بالشام أضحى مقيلهم ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

تسومهم الروم الهوان وأنتم تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

وتلك حروب من يغب عن غمارها ليسلم، يقرع بعدها سنّ نادم

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدى رماحهم والدين واهي الدعائم

ويجتنبون النار خوفاً من الردى ولا يحسبون العار ضربة لازم

أيرضى صناديد الأعراب بالأذى ويغضي إلى ذل كرامة الأعاجم

فليتهموا إذ لم يذودوا حمية عن الدين ضنوا غيرة بالمحار

⁸⁵ نزار قباني: الأعمال السياسية الكاملة، ص 421.

⁸⁶ الكامل (284-10) عن كتاب أيعيد التاريخ نفسه (34) .

يا قُدُسُ قَدْ غَامَتْ رُؤَايَ⁸⁷

يا قُدُسُ قَدْ غَامَتْ رُؤَايَ

يا قُدُسُ أَنْتِ سَجِينَةٌ

وَالْقَيْدُ أَوَّلُهُ يَدَايَ

يا قُدُسُ أَحْلُمُ كُلَّ يَوْمٍ

أَنْ يَضُمَّكَ سَاعِدَايَ

يا قُدُسُ مَثْقُوبٌ أَنَا

كَثُوبٍ نَايَ

فَلْتَعِزِّ فِي حُزْنِي لِأَبْكِي

رُبَّمَا هَدَأْتُ خُطَايَ

يا قُدُسُ جِسْمِي طَلَقَةٌ

فَلْتُطْلِقْهَا وَاعْلَمِي

أَنَّ الْبِدَايَةَ مِنْكَ كَانَتْ مُنْتَهَايَ

⁸⁷ عبد العزيز جوييدة، ديوان الشعر الفصيح.

(2)

يا قدسُ قالوا مِن سِنينَ:

أشجارُ أرضِكَ سوفَ تزهرُ ياسمينُ

عارٌ علينا

كفّني عارَ العروبةِ وادفني في الطينِ

كُلُّ المزارعِ فيكَ تطرحُ لاجئينَ

فبأيِّ وجهٍ إن سئلنا مِن صغارِ

يسألون عن الوطنِ:

في أيِّ خارطةِ فلسطينُ التي

ما عادَ يذكُرُها الزمنُ؟

ماذا نقولُ..

والطفلُ يُولدُ في فلسطينِ المراثيِ ،

في فلسطينِ المحنِ..

بيدَ تشدُّ على الرّنادِ

وفي اليد الأخرى كَفَنُ؟

المسجد الأقصى لهم أم لك: أبيات شعر تلغثم بها لساني حين زرت المسجد الأقصى في القدس في عطلة الصيف في 5 / 8 / 1966 م⁸⁸:

المسجد الأقصى إليّ اشتكى وقرّح العينين لَمَّا بكى

يا حسرتا قد عقّه أهله لما ارتأوا درب الهوى مسلكا

قد كان فيض النور إكليله فماله أمسى بنا محلكا

إن كنت لا تدري فسلّ سوره عن أمّة الفاروق إن أدركا

ينبئك إنّ العرب ماتوا ولم يكتب لهم زُبهم مهلكا

حلّت بعاث الطير في حيّهم واعجب أخى للوغد أن يملكا

قد قال لي السور وقد هاجني المسجد الأقصى لهم أم لكا!

فضاقت الأرض على رحبها وقلت يا رب ارحمن عبدكا

⁸⁸ مقدسيات الشاعر برهان الدين العبوشي، من ديوان النيازك.